قراءتان فى كتابات المؤرخين فى مناهجهم وأهدافهم

أقدم تحت هذا العنوان قراءتين :

الأولى : فى كتاب من سنيوبوس إلى فردينان لوط .

الثانية : فى فصل نشره أرنولد توينبي بمناسبة انتهائه من كتاب له بعنوان « ماذا حاولت أن أصنع ؟ »

أولا : كتاب سنيوبوس إلى فردينان لوط

(وهذا أهديه للدكتور ثابت الفندى أستاذ الفلسفة
فى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية)

سنيوبوس مؤرخ أستاذ ، مدرس قبل كل شىء ، أهم ما نشر له ، كتابه فى التاريخ السياسى لأوروبا المعاصرة ، وله كتاب آخر « التاريخ النزيه للأمة الفرنسية » وعنايته بالتدريس أهم صفاته ، وقد ألف لخدمة الطلاب مشتركاً مع لانجلوا « مقدمة للدراسات التاريخية » ، نُشر لأول مرة سنة ١٨٩٨ . وله كتاب آخر فى المنهج التاريخى أقل شهرة فى جامعاتنا على الرغم من أهميته ، هو كتاب « المنهج التاريخى مطبقاً على العلوم الاجتماعية » .

والخطاب الذى سأعرض له ، وجهه سنيوبوس من عزلته فى إقليم بريتانى إلى صديقه فردينان لوط المؤرخ المشهور لغارات القبائل المتبربرة ولنهاية العالم القديم . وتاريخ الكتاب ١٠ إلى ٢٩ يونية فى ١٩٤١ أى كتبه فى فترة الهزيمة والاحتلال الألمانى . والكتاب كتاب مؤرخ ، لا يحفل بالزائل احتفاله بالباقى ، ليس ذلك لأن نكبة فرنسا كانت شيئاً ضئيلا ، لا ، إنما هى نكبة ولكنها تزول . فلا ينبغى لها أن تملك عليه لبه ، فكتب من عزلته فى الريف لصديقه وزميله كتاباً طويلا فى التاريخ ودراسة التاريخ ومنهج التاريخ . كان ذلك — كما قلت — فى ١٩٤١ ، وتوفى سنيوبوس فى العام التالى (٢ مايو

١٩٤٢) . وبقى الكتاب فى أوراق لوط ، ولما مات هذا الأخير سلمت أرملته الكتاب إلى تلميذه فافتييه فنشره ، فى المجلد العاشر بعد المائتين من المجلة التاريخية الفرنسية (عدد يوليه — سبتمبر ١٩٥٣) واستغرق من تلك المجلة اثنتى عشرة صفحة . وهو مهم لأنه ثمرة خبرة طويلة وتفكير عميق من جانب مؤرخ كبير .

قال إن التاريخ — قطعاً — علم ، ذلك لأننا نسمى علماً أية حصيلة من المعلومات نحصل عليها بتطبيق منهج محقق على دراسة طائفة من الحقائق أو الوقائع من نوع واحد . ووثائق المادة التاريخية تتعلق ببنى الإنسان منتظمين فى جماعات ، وهى وقائع حدثت فى أزمنة متعاقبة ماضية .

والتاريخ من العلوم الرصفية . أى ليس من العلوم العمومية ، وهذه (ومن أمثلتها — الفيزيقا أو البيولوجيا) تعمل لاكتشاف قوانين . أما العلوم الوصفية فمادتها حقائق أو وقائع مفردة . وتهتم العلوم الوصفية بتوزيع تلك الأفراد فى المكان (النبات مثلا) أو فى المكان والزمان (الحيولوجيا مثلا) . والتاريخ يختلف عن سائر العلوم الوصـــفية فى أن من أفراد مادته ما هو حسى (كعمل من أعمال الإنسان مثلا) ومنها ما هو نفسى (عاطفة من العواطف الإنسانية مثلا) .

وانتقل سنيوبوس من هذا إلى عمل المؤرخ فى الآثار الحسية والشهادات الشفوية والمكتوبة ، مبيناً بالتفصيل الطرق والآفات التى تعيب عمل المؤرخ والتاريخ كله وعرض فى أثناء ذلك لكل ما يشغل بال الذين تحدثوا فى قضايا المنهج التاريخى . وخصوصاً قضية اليقين .

وإذا شاء السادة الفلاسفة المشتغلون بتلك القضايا وصفاً دقيقاً لعمل المؤرخ فأمامهم هذا النص المهم من انشاء مؤرخ ثقة بعد خبرة نصف قرن من الزمان.

ثانياً : أرنولد توينبى يتحدث عما حاول أن يصنع

قال توينبى فى فصل نشرته مجلة International Affairs (المجلد الحادى والثلاثون . العدد الأول : فبراير ١٩٥٥) .

قال : منذ سنة ١٩٢٧ وأنا أعمل فى كتابى هذا « دراسة التاريخ » وكان قد مضى علىّ إذ ذاك ثلاث سنوات وأنا أعمل فى الدراسات السنوية التى كان ينشرها المعهد الملكى للشئون الدولية . والعملان — دراستى للتاريخ ودراساتى السنوية لشئون العالم المعاصر — سارا جنباً إلى جنب وخدم كل منهما الآخر . فكيف يستطيع إنسان أن يتكلم عن أحداث زمانه دون أن يربطها على وجه ما بتاريخ الإنسانية ، وكيف يستطيع أن يفهم ماضى الإنسانية دون أن يستخدم للوصول إلى ذلك ما تعلمه من دراسة معاصريه عن الإنسانية التى مضت . ولابد — مثلا — لمن يريد أن يبعث حمورابى واخناتون وعاموس والبوذا من أن يدرس معاصريه من أمثال غاندى ولينين وروزفلت ، مثلا .

هذا إلى أن الحقبة من الزمان التى عشتها كانت فترة انقلاب تام فى أحوال الإنسان وخصوصاً ذلك الانقلاب الذى أصاب مركز « الغرب » فى العالم فجعله شيئاً آخر غير الذى كان . وكل من عاش فى هذه الحقبة وتتبع أمورها يسهل عليه أن يفهم الكثير من أمور الماضى . نضيف إلى ذلك ما كشفت عنه جهود الأثريين فى مختلف أقطار العالم من أحوال وأطوار لم تكن شيئاً مذكوراً . وهذا ما أثار فى نفسى الرغبة فى أن أقف وفى أن أنظر وفى أن أكون لنفسى صورة من ذلك الماضى الإنسانى . فكتابى كان لشفاء ما فى نفسى . وقد أحس غيرى بنفس الرغبة . فكانت لذلك الغير محاولات . وسيكون لمن سيأتى بعدنا محاولات ، وسيتناول غيرنا ما عملناه بالتعديل والتصحيح والمراجعة . وستحل كتب محل كتب .

وبعد ، فإن الحقبة التى نعيش فيها تختم عهداً من التاريخ الحديث يصح أن نطلق عليه اسم « العصر الحديث المتأخر » ومدته قرنان ونصف قرن من الزمان ، مبدؤه حوالى سنة ١٧٠٠ وهو عصر السيطرة الأوروبية على العالم وعصر « سيطرة الطبقة الوسطى » على أوربا ، ومن ثم على شعوب العالم .

ومن هذا العصر الحديث المتأخر عدّل المفكرون ، وبصفة خاصة

مفكرو القرن الثامن عشر ، النظرية العامة للتاريخ العام . وهى نظرية الأديان السماوية وقوامها حصر ذلك التاريخ بين بداية هى خلق الله العالم ، ونهاية هى قيام الساعة .

وتجد أشهر تعبير عن تلك النظرية فى المقال الجليل عن تاريخ العالم للحبر الخطير بوسييه Bossuet . قلت إن فلاسفة القرن الثامن عشر عدلوا تلك الصورة . حاولوا أن يحذفوا منها الخلق والساعة . وأوجدوا للتاريخ العام صورة أخرى — صوروه حركة تجرى فى خط مستقيم نحو كمال تبلغه فرنسا أو اسبانيا أو انجلترا أو الأمة التى ينتسب إليها الكاتب . وهى صورة لا يستطيع أن يدبر أصحابها مكاناً لهند أو لصين أو حتى لروسيا أو لأمريكا . ولا تجد فيها مكاناً لبعض حضارات الماضى ، فى أمريكا الوسطى أو فى الأناضول .

والواقع إننا لا نستطيع أن نقبل حركة تاريخية تجرى فى خط واحد ، إننا لا يمكن أن نتصور التاريخ إلا شجرة كثيرة الفروع ، ففى التاريخ تتعاصر الحضارات ، أما فعلا وإما فلسفياً ، فى تفكير المؤرخ . هذا والعلوم الإنسانية الآن (نظرية المعرفة ، علم النفس ، الانتروبولوجيا ، الاجتماع . الاقتصاد) تتبادل المعلومات وتستخدمها فى عرض الظواهر الاجتماعية عرضاً معقولا مفهوماً . ولا بد من أن يأتى اليوم الذى ندخل فيه التاريخ فى نطاق تلك الدراسات الاجتماعية فيفيد وننفيد . وقد حاولت أن أطبق ذلك المنهج العلمى فى دراستى وأن أسير به بقدر ما يستطيع من السير .

أقول هذا عامداً ، فللسير بالمنهج العلمى حدود . فإنى أؤمن مثلا بأن اصطداماً يقع بين شخصيتين إنسانيتين لا يمكن أبداً التنبؤ بما يسفر عنه من نتائج ، فهولا يخضع لقانون معروف . كذلك ما تنفجر عنه النفس الإنسانية شعراً أو إلهام أنبياء لا يخضع أيضا لأى قانون : فهى ظواهر تنبعث عن قدرات الخالق وتعود بنا إلى الصورة التى رسمتها الكتب السماوية للتاريخ الإنسانى .

وفى أثناء عملى فى هذا الكتاب — منذ سنة ١٩٢٧ . تغيرت نظرتى للأشياء فأصبح « للدين » المكانة الأولى فى تصويرى للتاريخ العالمى . وليس هذا الدين هو الدين المسيحى الذى نُشِّئت عليه . بل أصبحت أعتقد أن لادين بعينه يمكن أن يدعى لنفسه أنه وحده الدين الحق ، وأصبحت أرى أن ديانات الهند سوف يكون لها أثرها فى المكانة التى أتصورها للدين فى المستقبل ، على أنى أعتقد أن أيسر سبيل لفهم العالم هو ما يهيئه لكل إنسان دين آبائه وأجداده ، وهذا بشرط ألا ينفى عن الأديان الأخرى ما يمكن أن تسديه لخير الإنسانية .

انتهى الكتاب ، ولكن الموضوع لا يمكن أن ينتهى ، فالأثرى يحفر ويكشف والعالم النفسانى يغوص ويتعمق فى باطن النفس ، وما دام لدى طالب التاريخ شىء من فهم وذكاء ولب فلن يعوزه العمل .

محمد شفيق غربال